الإيجاز بحذف الاسم وشواهده من القرآن ا لكريم

أ . محمد الأمين خويلد
جامعة ورقلة

إن دراسة ظاهرة الإيجاز بالحذف دراسة علمية تعتمد على وصف الظواهر وتحليلها, و بيان الأسس التي تقوم عليها و إبراز الدلالات التي تؤديها الأنماط المختلفة لهذا الإيجاز في النص القرآني, تستدعي طرح العديد من الأسئلة التي يمكن أن تثار في هذا المجال, كالتساؤل عن ماهية الإيجاز بالحذف؟و عن أضربه و أسبابه وغاياته و شروطه ؟ و عن طبيعة القرائن المساعدة على تقدير المحذوف في الكلام الموجز ؟ و ما هي الوجوه التي يكثر فيها الحذف في كل ضرب ؟ و ما هي أبرز الدلالات التي تؤديها أضرب الإيجاز بالحذف في السياقات المختلفة ؟ و ماذا عن هذه الظاهرة في الدرس اللغوي بين القديم و الحديث ؟.....ولكن المجال لا يتسع لتحليل كل هذه الإشكاليات وتفصيل الإجابة عنها في هده المساحة الضيقة من البحث . ولذلك سنكتفي بعرض نماذج لضرب واحد من أضرب الإيجاز بالحذف , ألا وهو حذف الاسم .

إن الإيجاز ظاهرة لغوية عامة , تشترك فيها اللغات الإنسانية حيث يميل الناطقون في أية لغة إلى حذف بعض

العناصر المكررة في الكلام أو إلى حذف ما قد يمكن للسامع فهمه , اعتمادا على القرائن المصاحبة , حالية كانت أو عقلية أو لفظية [1] , لكن ورود هذه الظاهرة في العربية ووضوحها يفوق غيرها من اللغات , لما اتسمت به العربية من ميل إلى الإيجاز[2],حتى قالت العرب قديما : البلاغة الإيجاز .

و قد لفتت ظاهرة الإيجاز بالحذف انتباه علماء اللغة منذ بدايات الدرس اللغوي سواء أتعلق الأمر بالقرآن أم بكلام العرب،حيث نجد إشارات عديدة إليه في كثير من

أبواب النحو و الصرف والبلاغة، وبوجه خاص في علم المعاني،ولكن الملاحظ أن تلك الإشارات عابرة لا تتسم بالعمق و الشمول في الموضع الواحد إلا نادرا [3].

و لذلك كان من الضروري الوقوف على أبعاد ظاهرة الإيجاز بالحذف بالنظر إليها من جميع جوانبها، و جمع ما توصل إليه الأوائل من ملاحظات مع الإفادة مما قدمه الدرس اللغوي الحديث في هذه المسألة ، حتى يمكن الوصول لتصور دقيق و شامل عن الظاهرة كما هي في واقع اللغة.

و ننبه إلى أن الأصل أن يرد الكلام بغير حذف، و السبيل الأمثل لإعادة بنية الكلام إلى صورته الأصلية هو تقدير المحذوف من خلال السياق الوارد فيه، و هنا يقع الخلاف بين العلماء في طرق بيان كيفية الحذف و تحديد أسبابه, و قد كان لهذا الخلاف أثر عميق في تفرع أغراض الإيجاز بالحذف, و تحديد شروطه, و بيان أسبابه و مراميه في العديد من المواضع .

و إذا أشرنا إلى هذه الظاهرة في القرآن الكريم , باعتباره يمثل أعلى مراتب البلاغة و أسمى وجوه البيان , فإننا نجد صفة الإيجاز من أبرز الظواهر المتعلقة به , و بإمكان أي كان أن يقف على هذه الحقيقة في أي جزء من أجزاء كتاب الله العزيز , حيث يلاحظ أن الألفاظ القليلة تشير إلى المعاني الكثيرة , و دراسة هذه الظاهرة في القرآن الكريم سوف تؤدي إلى الكشف عن العديد من أسرار النظم فيه , شأنها في ذلك شأن القضايا المتعلقة بالتأليف, و الوقوف على تلك الدقائق يتطلب نظرة عميقة و جهداً علمياً مضاعفاً، إذ لا يقف الهدف عند حدود وصف ظاهرة الإيجاز بالحذف و تعيين مواطنها و إبراز أشكالها فحسب، بل ينبغي تحديد أسباب العدول عن الذكر إلى الحذف، و التمييز بين الأغراض المتباينة للحذف في أشكال الخطاب المختلفة.

و من أمثلة الإيجاز الوارد في القرآن قوله تعالى "فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا."(سورة البقرة الآية 60.) أي فضربه فانفجرت, فاكتفى بالمسبب الذي هو الانفجار من السبب الذي هو الضرب, وحذفت جملة

(فضربه) لدلالة القرائن عليها , لأن " العرب إنما تحذف من الكلام ما دل عليه الظاهر "[4] , و لا يختلف في تحديد المحذوف في هذه الآية اثنان, فالانفجار ناتج عن فعل ما, و لا يمكن أن يكون هذا الفعل غير الضرب بدليل (قلنا اضرب), فهناك معالم في السياق توجه المعاني وتخصصها حتى تصير في تحصيل الحاصل . ولذلك فإن " الحذف لا يكون إلا بدليل بنية معهودة أو نمط معروف أو قرينة قائمة أو معنى في السياق لا يستقيم إلا مع تقدير الحذف "[5] .

و قد يكون الإيجاز بحذف أكثر من جملة, و هذا الضرب من الحذف يلاحظ في القرآن الكريم بصفة عامة , وفي القصص القرآني بصفة خاصة وملفتة للنظر, حيث تحذف عدة جمل اختصارا و إيجازا, و يكتفى بدلالة القرائن العقلية و الحالية و اللفظية على المحذوف, من ذلك قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام: " ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين, و اسأل القرية التي كنا فيها و العير التي أقبلنا فيها و إنا لصادقون, قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل, عسى الله أن يأتيني بهم جميعا, إنه هو العليم الحكيم " (سورة يوسف الآيات 81-83) أي فرجعوا إلى أبيهم و أخبروه بما كان, فقال: بل سولت لكم أنفسكم أمرا.....الخ, فدل السياق على الجمل المحذوفة.

وكما يتعلق الإيجاز بجملة بأسرها أو بأكثر من جملة ،فإنه يتجلى أيضا بحذف جزء من الجملة ,اسما كان أو فعلا , و ذلك من جهات مختلفة ،فقد يكون الحذف من جهة الإسناد حيث يحذف المسند مبتدأ كان أو فاعلا , أو المسند إليه خبرا كان أو فعلا ،وقد يكون الحذف من جهة التعدية حيث يحذف المفعول , وقد يكون من جهة التبعية حيث يحذف النعت أو المنعوت،وقد يكون من جهة النسبة حيث يحذف المضاف أو المضاف إليه ، وقد يحذف حرف المعنى عاملا كان أو غير عامل, وتدل القرائن المختلفة و خاصة القرائن النحوية على الجزء المحذوف .

و يلخص ابن جني ذلك يقوله :"قد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة ،وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه....وأما حذف المفرد فعلى ثلاثة أضرب , اسم

وفعل وحرف "[6] . فمن حذف الاسم ،حذف المبتدأ في مثل قوله تعالى (كأنهم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ) (الأنفال الآية 35),أي ذلك,أو هذا بلاغ و هو كثي[7] ,ومن حذف المبتدأ في الشعر ما قاله عبد الله بن الزبير في غريم ألح عليه :

" تثاءب حتى قلت: داسع نفسه

و أخرج أنيابا له كالمعاول

الأصل حتى قلت:هو داسع نفسه،أي حسبته من شدة التثاؤب ,ومما به من الجهد يقذف نفسه من جوفه ,و يخرجها من صدره ,كما يدسع البعير جرته ,ثم إنك ترى نصبة الكلام وهيأته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ و تباعده عن وهمك,ويجتهد ألا يدور في خلدك ,ولا يعرض لخاطرك ,و تراك كأنك تتوقاه توقي الشيء يكره مكانه والثقيل يخشى هجومه "[8].

ومن أمثلة حذف الخبر قولهم في جواب :من عندك ؟:زيد , أي زيد عندي ,و كذا قوله تعالى (طاعة و قول معروف) (سورة محمد الآية 21) أي طاعة و قول معرف أمثل من غيرها .[9]

وكذلك نجد حذف المفعول في قوله تعالى (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون و وجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء و أبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل) (القصص الآية 24.23) في الآية الكريمة "حذف مفعول في أربعة مواضع إذ المعنى :وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم و امرأتين تذودان عنهما ,و قالتا :لا نسقي غنمنا , فسقى لهما غنمهما ...و ما ذلك إلا أن الغرض في أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقي , و من المرأتين ذود ,و أنهما قالتا لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء ... فأما ما كان المسقي غنما أم إبلا أم غير ذلك فخارج عن الغرض وموهم خلافه"[10]

و يبرر عبد القاهر الجرجاني ذلك بأنه " لو قيل :وجد من حولهما امرأتين تذودان غنمهما ؛جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود ,بل من حيث هو ذود غنم , حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود, كما أنك إذا قلت : مالك تمنع أخاك ؟ كنت منكرا المنع , لا من حيث هو منع ,بل من حيث هو منع أخ , فاعرفه تعلم أنك لم

تجد لحذف المفعول في هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت , إلا لأن في حذفه ,وترك ذكره , فائدة جليلة , وأن الغرض لا يصح إلا عن تركه "[11]

و هذه الأغراض الكلامية و الأبعاد الدلالية , لا تتعلق بحذف المبتدأ أو الخبر أو المفعول فحسب ,بل " ذلك سبيله في كل شيء ,فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ,ثم أصيب به موضعه , وحذف في الحال , ينبغي أن يحذف فيها إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره , وترى إضماره في النفس أولى و أنسب من النطق به"[12] , و لذلك يرى علماء البلاغة أن أهمية الحذف تتجلى في كونه يثير الانتباه , و يلفت النظر , و يبعث على التفكير فيما حذف , فتحدث عملية إشراك للمتلقي في الرسالة الموجهة إليه بشرط ألا يؤدي إيجاز الحذف إلى غموض المعنى , إذ به تكون صورة الجملة مؤدية للمقصد البلاغي,وهم لا يختلفون على أنه أكثر بلاغة من الذكر,لأن الذكر سير فيما هو مألوف أما الحذف فهو خروج عن النمط الشائع في التعبير [13]

ومن ثمة ندرك أن غرض المتكلم و هو عنصر غير لغوي لا يتحقق إلا في الابقاء على صورة الحذف و ذلك مشروط بعلم المخاطب به و هذا لا ينفي دور العنصر اللغوي لأن الحذف محكوم بقيد لغوي نحوي , وإذ لابد من تقدير المحذوف في التعبير لتحقيق الإفادة من الكلام[14]

ومن نماذج حذف الاسم حذف الفاعل وعلى هذا ورد قوله تعالى "كلا إذا بلغت التراقي و قيل من راق " (القيامة الآية 27.26) و "حذف الفاعل لا يجوز على الإطلاق بل يجوز فيما هذا سبيله وذلك أنه لا يكون إلا فيما دل الكلام عليه , ألا ترى أن التي تبلغ التراقي إنما هي النفس و ذلك عند الموت فعلم حينئذ أن النفس هي المرادة , وإن كان الكلام خاليا عن ذكرها " [15]

كما نجد حذف المضاف إليه , وذلك في نحو قوله تعالى "لله الأمر من قبل و من بعد " (الروم الآية 4) أي من قبل ذلك و من بعده[16]

و قد يحذف المضاف و ذلك كثير واسع و منه قوله عز اسمه "واسأل القرية " (يوسف الآية 82) أي أهلها[17] , و السياق الذي وردت فيه الآية يدل على وجود

الحذف " ألا ترى أنك لو رأيت "سل القرية " في غير التنزيل لم تقطع بأن هاهنا محذوف , لجواز أن يكون كلام رجل مر بقرية قد خربت و باد أهلها , فأراد أن يقول لصاحبه واعظا و مذكرا أو لنفسه متعظا معتبرا : سل القرية عن أهلها و قل لها ما صنعوا "[18]

و عليه فإن قضية الحذف تراعي " عدة عناصر تشكل في مجموعها حدثا كلاميا:

* أولها: عناصر التركيب الذي يقع فيه الحذف والعلاقة بين العنصر المحذوف والعناصر القائمة تركيبيا ودلاليا

* ثانيها: قدرة المخاطب على إدراك العنصر المحذوف,ومغزى الحذف

* ثالثها:قصد المتكلم من الحذف

- رابعها:الموقف الكلامي (السياق/المقام) الذي يجيز صحة التركيب الواقع فيه الحذف أو عدم صحته"[19] .

والقرينة في الآية السابقة قرينة عقلية لعدم صحة سؤال البيوت والإبل,ويعرف حذف المضاف في البلاغة بمجاز الحذف[20] وله شواهد كثيرة جدا في الكتاب العزيز وقد تتبعه العز بن عبد السلام في القران الكريم على ترتيب السور [21]

ونشير إلى أن الحذف المضاف في حد ذاته ليس هو المجاز لأن"المجاز استعمال اللفظ في غير ما وضع له أولا,والكلمة المحذوفة ليست كذلك,وإنما التجوز في أن ينسب إلى المضاف إليه ما كان منسوبا إلى المضاف "[22] فوجه المجاز في حذف المضاف في قوله تعالى"واسأل القرية التي كنا فيها,والعير التي أقبلنا فيها"(يوسف82)يتجلى في نسبة السؤال إلى القرية والعير,لأن "السؤال موضع لمن يفهمه,فاستعماله في الجمادات استعمال اللفظ في غير موضعه فكونهما مسؤولين من جهة اللفظ دون المعنى هو المجاز"[23]

وقد يكون حذف الاسم من جهة التبعية,فمثال حذف الصفة قوله تعالى"أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك ياخذ كل سفينة غصبا (الكهف الآية 79)أي سفينة صالحة , بدليل (فأردت أن أعيبها) , ومن حذف الموصوف قوله تعال(منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) (آل

عمران الآية7) , أي : وآيات أخر, ومنه قوله تعال(فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) (النساء الآية 3), أي فامرأة واحدة[24]

وما ذكرناه من الشواهد يعد نزرا قليلا من الكثير الوارد في الكتاب الحكيم,أردنا من خلاله بيان الأهمية اللغوية لإيجاز الحذف وأبعاده البلاغية والدلالية , وقد وصفه عبد القاهر الجرجاني بأنه "باب دقيق المسلك لطيف المأخذ,عجيب الأمر,شبيه بالسحر,فإنك نرى به ترك الذكر أفصح من الذكر,والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة, وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق, وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن"[25]

ويبقى أن نشير إلى أن علماء العربية قد سبقوا علماء الدرس اللساني الحديث,وخاصة أصحاب المدرسة التحويلية التوليدية في دراسة ظاهرة الحذف–وهي ظاهرة مشتركة في اللغات الإنسانية–دراسة عميقة,بل إن"الطريقة التي يقدمها المنهج التحويلي في تفسير ظاهرة الحذف هي التي قدمها النحو العربي"[26]ويكاد شرحهم المستفيض لكل ما رأوه من حذف في العربية يوحي بفكرة(البنية العميقة) عند التحويليين [27]

الإحالات

(1) - (ظ ح .ص 4) ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي . طاهر سليمان حمودة . الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع . الإسكندرية . ص 4

(2) - (ظ ح .ص 9) المرجع نفسه ص9

(3) - (ظ ح .ص 3) المرجع نفسه ص3

(4)- (تأويل ص139)تأويل مشكل القرآن . ابن قتيبة دار الكتب العلمية لبنان ط1. 2002. ص 139

(5)- (البيان ص157) البيان في روائع القرآن.د. تمام حسان عالم الكتب القاهرة ط 1. 1993.ص 157

(6)- الخصائص .ابن جني ت . محمد علي النجار المكتبة العلمية .دط . دت . 361.360/2)

(7)- يراجع المصدر نفسه 362/2

(8)- دلائل الإعجاز.عبد القاهر الجرجاني.شرحه د.محمد التنجي دار الكتاب العربي ط2 1997 ص 126.125)

(9) - يراجع الخصائص 362/2

(10) - دلائل الإعجاز 132.131

(11) -دلائل الإعجاز ص132

(12)- دلائل *الإعجاز* 127.126

(13) - يراجع الأسلوبية . د/ فتح الله أحمد سليمان مكتبة الآداب القاهرة دط دت ص 140

(14) - يراجع دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة .د. سعيد حسن بحيري .مكتبة زهراء الشرق . القاهرة .دط. دت . ص 128.127

(15)- المثل السائر . ابن الأثير.ت كامل محمد محمد عويضة .دار الكتب العلمية. لبنان.ط1. 1998.2/ 72

(16)- يراجع خصائص 363/2

(17) - يراجع خصائص 362/2

(18)- أسرار البلاغة. عبد القاهر الجرجاني.ت.محمد الفاضلي .المكتبة العصرية بيروت.ط3. 2001 .ص 310

(19)-من أصول التحويل في نحو العربية.د/ ممدوح عبد الرحمن.دار المعرفة الجامعية.دط. 1999.ص 146147

(20) -البيان في روائع القران ص165

(21) -يراجع الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز . عز الدين بن عبد السلام . ت.محمد بن الحسن بن إسماعيل . *دار الكتب العلمية . لبنان. ط1 1995 .* ص 193-313

(22)- يراجع المصدر *نفسه. ص 20*

(23)- يراجع المصدر *نفسه. ص81*

(24)- البيان في روائع القرآن ص 164-165

(25) -دلائل الإعجاز ص121

(26) – النحو العربي والدرس الحديث د/عبده الراجحي . دار النهضة العربية بيروت . دط. دت . ص149

(27) - يراجع المرجع نفسه. ص 152